

تفسير سورة الاحزاب

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن زر قال : قال لى أبي بن كعب : كآين تقرا سورة الاحزاب ؟ او كآين تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثا وسبعين آية . فقال : قط ! لقد رأيتها وإنها لتعادل « سورة البقرة » ، ولقد قرأنا فيها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالا من الله ، والله عليم (١) حكيم » . ورواه النسائي (٢) . وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضى أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضا ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٢﴾

هذا تنبيه بالاعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا ، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى . وقد قال طلق بن حبيب : التقوى : أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم فى أقواله وأفعاله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى : من قرآن وسنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى جميع أمورك وأحوالك ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى : وكفى به وكيل لمن توكل عليه وأتاب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ . وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١﴾

يقول تعالى موطنًا قبل المقصود المعنوى أمرًا معروفًا حسيًا ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ، ولا نصير رجته التى يظاهر منها بقوله : أنت على كظهر أمى أما له ، كذلك لا يصير الدعوى ولدًا للرجل إذا تبناه فدعاه ابنًا له ، فقال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَا مِنْ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ الآية [للمجادلة : ٢] .

(١) فى المطبوعة : «عزيز حكيم» ، وما آتته من المسند والمخطوطة .

(٢) المسند (٥ / ١٣٢) والنسائي فى الكبرى (٧١٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ : هذا هو المقصود بالنفى ؛ فإنها نزلت في شأن زيد ابن حارثة مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له : « زيد بن محمد » ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، كما قال تعالى في أثناء السورة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، وقال ههنا : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ ، معنى : تبيينكم لهم قول لا يقتضى أن يكون ابنا حقيقيا ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ قال سعيد بن جبير : ﴿ يَقُولُ الْحَقُّ ﴾ أى : العدل . وقال قتادة : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أى : الصراط المستقيم . وقد ذكر غير واحد : أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له : « ذو القليلين » ، وأنه كان يزعم أن له قليلين ، كل منهما بعقل وافر . فانزل الله هذه الآية رداً عليه . هكذا روى العوفي عن ابن عباس . وقاله مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقاتدة ، واختاره ابن جرير . وروى الإمام أحمد عن ابن أبي ظبيان قال : قلت لابن عباس : رأيت قول الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ، ما عني بذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يوماً يصلى ، فخطر خطرة ، فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قليلين ، قلباً معكم وقلباً معهم ؟ فانزل الله عز وجل : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ . وهكذا رواه الترمذى ثم قال : وهذا حديث حسن (١) .

وقال الزهري ، في قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ، ضرب له مثل . يقول : ليس ابن رجل آخر ابنتك . وكذا قال مجاهد ، وقاتدة ، وابن زيد : أنها نزلت في زيد بن حارثة . وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ : هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأديعاء ، فأمر تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط . روى البخارى عن عبد الله بن عمر ؛ أن زيداً بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى (٢) .

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك ؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة : يا رسول الله ، كنا ندعو ما مالنا ابنا ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل على ، وإنى أجد في نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً فقال ﷺ : « أرضعيه تحرمى عليه » الحديث (٣) . ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تعالى زوجة الدعوى ، وتزوج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة ، وقال : ﴿ لَكَيْنِ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ لِّبِأَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾

(١) المسند (٢٤١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» والترمذى (٣١٩٩).

(٢) البخارى (٤٧٨٢) ومسلم (٢٤٢٥ / ٦٢) والترمذى (٣٢٠٩) والنسائى في الكبرى (١١٣٩٧).

(٣) مسلم (١٤٥٣ / ٢٦).

إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا ﴿ [الاحزاب : ٣٧] ، وقال في آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ، احترازًا عن زوجة الدعوى ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة ، فمنزلة ابن الصلب شرعًا ، بقوله ، عليه السلام ، في الصحيحين : « حرّموا من الرضاعة ما يحرم من النسب » (١) . فأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتحيب ، فليس مما نهى عنه في هذه الآية ، بدليل ما رواه الإمام أحمد واهل السنن إلا الترمذى عن ابن عباس ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بنى عبد المطلب على حُمُرَاتٍ لَنَا مِنْ جَمْعٍ ، فَجَعَلَ يَلْطَخُ أَفْخَادَنَا وَيَقُولُ : « أَيُّنَى لَا تَرْمُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ » (٢) . قال أبو عبيدة وغيره : « أَيُّنَى » : تصغير ابنى . وهذا ظاهر الدلالة ، فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر ، وقوله : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ في شأن زيد بن حارثة ، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان ، وإيضًا ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك ، قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يَا بُنَى » ، ورواه أبو داود والترمذى (٣) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ : أمر تعالى برد أنساب الادعياء إلى آبائهم ، إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا آبائهم ، فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أى : عوضًا عما فاتهم من النسب ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء ، وتبعته ابنة حمزة تنادى : يا عم ، يا عم . فأخذها على وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك فاحتلمتها . فاختصم فيها على ، وزيد ، وجعفر في أيهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة ؛ فقال على : أنا أحق بها وهى ابنة عمى . وقال زيد : ابنة أخى . وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى ، وخالتها تحتمى - يعنى أسماء بنت عميس . ففضى النبى ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الام » . وقال لعلى : « أنت منى ، وأنا منك » . وقال لجعفر : « أشبهت خلقى وخلقى » . وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » (٤) . ففي هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها : أنه ، عليه الصلاة والسلام ، حكم بالحق ، وأرضى كلاً من المتنازعين ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ، كما قال تعالى : ﴿ فَاِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ .

وقد جاء في الحديث : « من ادعى لغير أبيه ، وهو يعلمه كفر » (٥) . وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد ، فى التبرى من النسب المعلوم ؛ ولهذا قال : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَتَسَّ عَلَيْنَكُمْ جَنَاحَ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ أى : إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة خطأ ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ؛ فإن الله قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه ، كما أرشد إليه فى قوله أمرًا عباده أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله : قد فعلت » (٦) . وفى صحيح البخارى ، عن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ ، فله أجر » (٧) . وقال

(١) البخارى (٤٧٩٦) ومسلم (١٤٤٥ / ٣) .

(٢) المسند (١ / ٣١١) ، وقال الشيخ أحمد شاکر (٢٨٤٢) : «إسناده ضعيف» ، وأبو داود (١٩٤٠) وابن ماجه (٣٠٢٥) .

(٣) مسلم (٢١٥١ / ٣١) وأبو داود (٤٩٦٤) والترمذى (٤٨٣١) .

(٤) البخارى (٣٥٠٨) .

(٥) البخارى (٧٣٥٢) .

(٦) مسلم (١٢٦ / ٢٠٠) .

ها هنا : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْفَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَمَمَّدْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ اى : وإنما الإنم على من تمعد الباطل كما قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَكِن يُّؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ ﴾ .

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ، ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من انفسهم ، وحكمه فيهم مقدما على اختيارهم لانفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥] . وفى الصحيح : « الذى نفس بيده ، لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من نفسه وماله وولده والناس اجمعين » (١) . وفى الصحيح أيضا ان عمر قال : يا رسول الله ، والله لانت احب الى من كل شيء الا من نفسى . فقال : « لا يا عمر ، حتى اكون احب اليك من نفسك » . فقال : يا رسول الله ، والله لانت احب الى من كل شيء حتى من نفسى . فقال ﷺ : « الآن يا عمر » (٢) .

ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : ﴿ النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم ﴾ . وروى البخارى عن ابى هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « ما من مؤمن الا وانا اولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرؤوا ان شئتم : ﴿ النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم ﴾ فاجبا مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا . وان ترك ديننا او ضياعا ، فليأتنى فانا مولاه » . تفرد به البخارى (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ اى : فى الحرمة والاحترام ، والإكرام والتوقير والإعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا يتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وهو من باب إطلاق العبارة لإثبات الحكم .

وقوله : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ اى : فى حكم الله ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾ اى : القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والانصار ، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالخلف والمواخاة التى كانت بينهم ، كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجرى يرث الانصارى دون قراباته وذوى رحمه ، للاخوة التى آتى بينهما رسول الله ﷺ ، وكذا قال سعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف والخلف .

وقوله : ﴿ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ اى : ذهب الميراث ، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية . وقوله : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ اى : هذا الحكم ، وهو ان أولى الارحام بعضهم أولى ببعض ، حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الاول ، الذى لا يبدل ، ولا يغير . قاله مجاهد وغير واحد . وان كان تعالى قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة ، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى ، وقضائه القدرى الشرعى .

(٢) البخارى (١٦٣٢) .

(١) البخارى (١٤) .

(٣) البخارى (٤٧٨١) .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ يَا نُوحُ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء : أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله ، وإبلاغ رسالته ، والتعاون والتناصر والاتفاق ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَتَّصِرُنَّهُ قَالُوا أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم ، وكذلك هذا . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم ، وهو من باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية ، وفي قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] ، فذكر الطرفين والوسط ، الفاتح والخاتم ، ومن بينهما على هذا الترتيب . فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها ، كما قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ يَا نُوحُ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ ، فبدأ في هذه الآية بالخاتم ؛ لشرفه - صلوات الله عليه - ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم .

وقوله : ﴿ لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ قال مجاهد : المبلغين المؤدين عن الرسل . وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى : من أعظم ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : موجعاً ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين ، الواضح الجلي ، الذى لا لبس فيه ، ولا شك ، ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فُرُوقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين ، في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تاليوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرًا من أشرف يهود بنى النضير ، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر ، منهم : سلام بن أبي الحقيق ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع ، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشرف قريش ، واليهم على حرب النبي ﷺ ووعدهم من أنفسهم النصر والإعانة . فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً . وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها ، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن ابن بذر ، والجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي ، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر ، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات .

وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم فى أعلى أرض المدينة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ ، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف ، وقيل : سبعمائة ، وأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجههم إلى نحو العدو ، واحتدق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجال والحجارة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذراى فى أطام المدينة، وكانت بنو قريظة - وهم طائفة من اليهود - لهم حصن شرقى المدينة ، ولهم عهد من النبى ﷺ وذمة ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم حمى بن أخطب النَّضْرَى اليهودى ، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ، ومالوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، فعظم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى : ﴿ هَذَا الَّذِي آتَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَزَلَّوْا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ . ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ود العامرى - وكان من الفرسان الشجعان المشهورين فى الجاهلية - ركب معه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ حيل المسلمين إليه ، فلم يبرز إليه أحد ، فأمر علياً فخرج إليه ، فتجاولا ساعة، ثم قتله على ، رضى الله عنه ، فكان علامة على النصر . ثم أرسل الله ، عز وجل ، على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا تُوقَد لهم نار ، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خابرين ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ . قال مجاهد : وهى الصبا ، ويؤيده الحديث الآخر : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » (١) .

وقوله : ﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ : وهم الملائكة ، زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلى . فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء . لمالقى الله تعالى فى قلوبهم من الرعب . وقال ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله ، رأيت رسول الله ﷺ وصحبتهم ؟ قال : نعم يا بن أخى . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه، يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال: قال حذيفة : يابن أخى ، والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُوياً من الليل ، ثم التفت فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ ؟ - يَشْرَطُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ - أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . قال : فما قام رجل ثم صلى رسول الله ﷺ هُوياً من الليل ثم التفت إلينا ، فقال مثله ، فما قام سائر رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُوياً من الليل ثم التفت إلينا فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ - يَشْرَطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجْعَةَ - أَسْأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ » . فما قام رجل من القوم ؛ من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يبق أحد ، دعانى رسول الله ﷺ . فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال : « يا حذيفة ، اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ، ولا تُحدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا » . قال : فذهبت فدخلت فى القوم، والريح وجنود الله ، عز وجل ، تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقرُّ لهم قَدْرًا ولا نَارًا ولا بِنَاءً ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر كل امرؤ مَن جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبي ، فقلت : من

انت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والحف ، واخلفنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح الذي ترون . والله ما تطمئن لنا قنر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإني مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا هو قائم . ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي : « الا تحدث شيئا حتى تأتيني » لو شئت ، لقتلته بهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى في مرط لبعض نساؤه مرتحل ، فلما رأني ادخلني بين رجله ، وطرح على طرف المرط ، ثم ركع ، وسجد وإني لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمنت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم . وقد رواه مسلم في صحيحه عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان فقال له رجل : لو أدركت رسول الله ﷺ ، قاتلت معه وأبليت . فقال له حذيفة : انت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الاحزاب في ليلة ذات ريع شديدة وقر ، فقال رسول الله ﷺ : « الا رجل يأتي بخير القوم ، يكون معي يوم القيامة ؟ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله . ثم قال : « يا حذيفة ، قم فأتنا بخير من القوم » . فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم ، فقال : « اتنى بخير القوم ، ولا تدعهم علي » . قال : فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يصلى ظهره بالنار ، فوضعت سهما في كبد قوسى ، وارتد ان أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا تدعهم علي » ، ولو رميته لأصبته . قال : فرجعت كأنما أمشي في حمام ، فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابني البرد حين قرعت وقررت ، فأخبرت رسول الله ﷺ ، والبسني من فضل عبادة كانت عليه يصلى فيها ، فلم أزل نائما حتى الصباح ، فلما ان أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قم يا نومان » (١) .

وقوله : ﴿ إِذْ جَاءَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أى : الاحزاب ﴿ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ ﴾ بنو قريظة ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ أى : من شدة الخوف والفرع ﴿ وَتَقَطَّوْنَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ . قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك . وقال ابن إسحاق فى قوله : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَقَطَّوْنَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ : ظن المؤمنون كل ظن ، ولحم النفاق حتى قال معتب بن قشير - أخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن ناكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحلنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط . وقال الحسن فى قوله : ﴿ وَتَقَطَّوْنَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا واصحابه يتأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبِ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَسْتَسْتَذِنُوا فَرِيقٌ مِنْهُمْ اتَّقَى يَقُولُونَ إِنَّا بِيَوْمِنَا غُورَةٌ وَمَا هِيَ بِغُورَةٍ إِذْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضييق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم : أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزلاً شديداً ، فحيثما ظهر الضيق ، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أما المنافق ، فنجس نفاقه ، والذي في قلبه شبهة أو حسكة ، لضعف حاله فتفس بما يجده من الوسواس في نفسه ؛ لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعني : المدينة ، كما جاء في الصحيح : « أريت [في المنام] دار هجرتكم ، أرض بين حرتين فذهب وهلى أنها حجر ، فإذا هي يثرب » ، وفي لفظ : « المدينة » (١) .

وقوله : ﴿ لَا مَقَامَ لَكُمْ ﴾ أى : هاهنا ، يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة ﴿ فَأَرْجِعُوا ﴾ أى : إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ وَسَتَأْتُونَ فِرْقَانًا مِنْهُمْ النَّبِيَّ ﴾ قال ابن عباس : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السرقة . وكذا قال غير واحد . وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك : هو أوس بن قيطى ، يعنى : اعتلوا في الرجوع إلى منازلهم بانها عورة ، أى : ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ ﴾ أى : ليست كما يزعمون ﴿ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى : هرباً من الزحف .

﴿ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا نَيْبًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّينَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنْ بُوْتْنَا عُورَةٌ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ : أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة ، وقطر من أقطارها ، ثم سألوا الفتنة ، وهى الدخول في الكفر ، لكفروا سريعاً . وهم لا يحافظون هلى الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وقرع . هكذا فرسها قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وابن جرير ، وهذا ذم لهم في غاية الذم .

ثم قال تعالى : يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف ، ألا يولوا الأديار ولا يفروا من الزحف ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أى : وإن الله سبأهم عن ذلك العهد ، لا بد من ذلك .

ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر أجالهم ، ولا يطول أعمارهم ، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَا تَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى : بعد هربكم وفراركم ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء : ٧٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : بمنكم ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا منيئ .

(١) البخارى (٧٠٣٥) وما بين المقوفتين منه ومن المطبوعة ، وهو ليس في المخطوطة .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ أى : أصحابهم وعشرائهم وخلطانهم ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أى : إلى ما نحن فيه من الإقامة فى الظلال والتمار ، وهم مع ذلك ﴿ لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أى : بخلاء بالموءة ، والشفقة عليكم .

﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى : من شدة خوفه وجزعه ، وهكنا خوف هولاء الجبناء من القتال ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ جِدَادٍ ﴾ أى : فإذا كان الامن ، تكلموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا ، وادعوا لانفسهم المقامات العالية فى الشجاعة والنجدة ، وهم يكذبون فى ذلك . وقال ابن عباس : ﴿ سَلَفُوكُمْ ﴾ أى : استقبلوكم . وقال قتادة : اما عند الغنمة فاشح قوم ، واسواء مقاسمة : اعطونا ، اعطونا ، قد شهدنا معكم . واما عند البأس فاجبن قوم ، واخذله للحق . وهم مع ذلك اشحة على الخير ، أى : ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا هينا عنده .

﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوكَ عَنْ أَنبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٢٠﴾

وهذا ايضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخوف والخور ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ بل هم قريب منهم ، وإن لهم عودة اليهم ﴿ وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبِيَائِهِمْ ﴾ أى : ويودون إذا جاءت الاحزاب انهم لا يكونون حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية ، يسألون عن اخبارك ، وما كان من امركم مع عدوكم ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى : ولو كانوا بين اظهركم ، لما قاتلوا معكم إلا قليلاً ؛ لكثرة جنهم وذلتهم وضعف يقينهم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

هذه الآية الكريمة اصل كبير فى التأسى برسول الله ﷺ فى اقواله وافعاله واحواله ؛ ولهذا امر الناس بالتأسى بالنبي ﷺ يوم الاحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه ، عز وجل ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى امرهم يوم الاحزاب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أى : هلا اقتديتم به وتاسيتم بشمائله ؟ ولهذا قال : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ .

ثم قال تعالى مخبراً عن عبادة المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ قال ابن عباس وتادة : يعنون قوله تعالى في « سورة البقرة » : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ وَالضَّرَّاءُ وَزُقُوتُهُمْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] . أى : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ : دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قاله جمهور الأئمة : إنه يزيد ويتقص .
ومعنى قوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أى : ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إِلَّا إِيمَانًا ﴾ بالله ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ أى : انقيادا لأوامره ، وطاعة لرسوله .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَتَهُمْ وَمَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ۗ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾

لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأديار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق ، و ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَتَهُ ﴾ قال بعضهم : أجله . وقال البخارى : عهده . وهو يرجع إلى الاول ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أى : وما غيروا عهد الله ، ولا نقضوه ولا بدلوه .

روى البخارى عن ابن زيد بن ثابت ، قال : لما نسخنا الصحف ، فَقَدْتُ آيَةَ مِنْ « سورة الاحزاب » كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الانصارى ، الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . وأخرجه أحمد ، والترمذى والنسائى . وقال الترمذى : « حسن صحيح » (١) .

وروى البخارى أيضا عن أنس بن مالك قال : نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . انفرد به البخارى من هذا الوجه (٢) ، ولكن له شواهد من طرق أخر . روى الإمام أحمد عن أنس قال : عمى أنس بن النضر سميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غِيَّبْتُ عَنْهُ ، لئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ [يوم] أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس : يا أبا عمرو أين؟ [فقال:] واهأ لربيع

(١) البخارى (٤٧٨٤) ، والمسند (١٨٨/٥) ، والترمذى (٣١٠٤) ، والنسائى فى الكبرى (١/١١٤) .

(٢) البخارى (٤٧٨٣) .

الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قُتل قال : فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته - عمتي الربيع ابنة النضر - : فما عرفتُ أحمى إلا بينانه . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ . قال : فكانوا يُروون أنها نزلت فيه ، وفي أصحابه . ورواه مسلم والترمذي والنسائي (١) .

وروى ابن أبي حاتم عن أنس أن عمه - يعني : أنس بن النضر - غاب عن قتال بدر ، فقال : غيبتُ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين ، لئن الله أشهدني قتالاً للمشركين ، لآيدين الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني اعتذر إليك بما صنع هؤلاء - يعني : أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء - يعني : المشركين - ثم تقدم فلقبه سعد - يعني : ابن معاذ - دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع . قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطعنة رمح ، ورمية سهم . وكانوا يقولون : فيه وفي أصحابه نزلت : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ . وأخرجه الترمذي والنسائي . وقال الترمذي : حسن (٢) . وقد رواه البخاري في المغازي عن أنس ولم يذكر نزول الآية (٣) . قال مجاهد في قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ قال : عهده ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ قال : يوماً فيه القتال فيصدق في اللقاء . وقال الحسن : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ يعني : موته على الصدق والوفاء ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تبديلاً . وكذا قال قتادة ، وابن زيد وقال بعضهم : ﴿ نَحْبَهُ ﴾ : نذره .

وقوله : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أي : وما غيروا عهدهم ، وبدلوا الوفاء بالخذل ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إِنْ بَوَّأْنَا عِوَجًا وَمَا هِيَ بِعِوَجَةٍ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْأَذْهَانَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِمِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : إما يختبر عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يحملوا بما يعلمه فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَبَوَّأْتُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبَوَّأْتُمْ أَمْثَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] ، فهذا علم الشيء بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلًا به قبل وجوده . وكذا قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذْهِبَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلَمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِمِدْقِهِمْ ﴾ أي : بصيرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظتهم عليه ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ : وهم الناقضون لعهد الله ، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان ، وعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورافته بخلقه هي الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْظِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا

(١) المسند (٣/١٩٤) ، ومسلم (٩٣/١٠٤٨) ، والترمذي (٣٢٠٠) . وما بين المعرفتين من صحيح مسلم .

(٢) الترمذي (٣٢٠١) والنسائي في الكبرى (١١٤٠٣) وصححه الألباني .

(٣) البخاري (٤٠٤٨) .

عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا ان جعل الله رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد ، ولكن قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ لَبِيبٌ ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق جماعتهم ، وردهم خائنين خاسرين بغيظهم وحقهم ، لم ينالوا خيراً لا فى الدنيا ، بما كان فى أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا فى الآخرة بما تحملوه من الأثام فى مبارزة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بالعداوة ، وهمهم بقتله ، واستصعاب جيشه ، ومن همم بشيء وصدق همم بفعله ، فهو فى الحقيقة كفاعله .

وقوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أى : لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » . أخرجه من حديث أبى هريرة (١) . وفى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم ، اهزمهم وزلزلهم » (٢) .

وفى قوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها ، لم يفرهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون فى بلادهم . قال ابن إسحاق : لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، فلم تغز قريش بعد ذلك ، وكان هو يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة . وهذا حديث صحيح ، كما روى الإمام أحمد عن سليمان بن صرد قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « الآن تغزوهم ولا يغزونا » . وهكذا رواه البخارى (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أى : بحوله وقوته ، ردهم خائنين ، لم ينالوا خيراً ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقَاتَلُوا وَتَأْسَرُوا فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَأَنْبَاءَهُمْ وَأَرْسَالَهُمْ نَخَشَوْهَا ذَاتَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، وكان ذلك بسفارة حنن بن أخطب النضرى - لعنه الله - دخل حصنهم ، ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال : ويحك ، قد جئتك بعز الدهر ،

(٢) البخارى (٢٩٣٣) ، ومسلم (١٧٤٢/٢١) .

(١) البخارى (٤١١٤) ، ومسلم (٧٧/٢٧٢٤) .

(٣) المسند (٤/٢٦٢) ، والبخارى (٤١٠٩) .

أتيتك بقریش وأحابيشها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه . فقال له كعب : بل والله أتيتنى بذلُّ الدهر . ويحك يا حبي ، إنك مشووم ، فدعنا منك . فلم يزل يفتل في الثروة والغارب حتى أجابه ، واشترط له حبي إن ذهب الأحزاب ، ولم يكن من أمرهم شيء ، أن يدخل معهم في الحصن ، فيكون له أسوتهم . فلما نقضت قريظة ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه ، وشق عليه وعلى المسلمين جداً ، فلما أیده الله ونصره ، وكبت الأعداء وردهم خائنين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً ، ووضع الناس السلاح . فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معترجاً بعمامة من إستبرق ، على بغلة عليها قطيفة ديباج ، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ، وهذا الآن رجوعى من طلب القوم . ثم قال : إن الله يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة . فنهض رسول الله ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة ، وكانت على أميال من المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بنى قريظة » . فسار الناس ، فأدرتهم الصلاة في الطريق ، فصلى بعضهم في الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا في بنى قريظة . فلم يمتف واحداً من الفريقين . وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصروهم خمسين ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ - سيد الأوس - لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك ، كما فعل عبد الله بن أبى بن سلول في مواليه بنى قينقاع ، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى في أولئك ، ولم يعلموا أن سعداً ، رضى الله عنه ، كان قد أصابه سهم في أكله أيام الخندق ، فكواه رسول الله ﷺ في أكله ، وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد فيما دعا به : اللهم ، إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها . وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فأفجرها ولا تمتنى حتى تُقر عيني من بنى قريظة . فاستجاب الله دعاءه ، وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطؤوا له عليه ، جعل الأوس يلودون به ويقولون : يا سعد ، إنهم مواليك ، فأحسن فيهم . ويرفقونه عليهم ويعطفونه ، وهو ساكت لا يرد عليهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستقيم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله : « قوموا إلى سيدكم » فقام إليه المسلمون ، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك ، فأحكم فيهم بما شئت » . قال : وحكمى نافذ عليهم ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من هاهنا . وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً - فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » . فقال : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسنى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : « لقد

حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرفعة (١) ، وفي رواية : « لقد حكمت بحكم الملك » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخذت في الأرض ، وجيء بهم مكثفين ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعماية إلى الثمانمائة ، وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ أى : عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : بنى قريظة من اليهود ، من بعض أسباط بنى إسرائيل ، كان قد نزل آباؤهم الحجار قديما ، طمعا في اتباع النبی الامی الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة : ٨٩] ، فعليهم لعنة الله .

وقوله : ﴿ مِنْ صِيَاهِمِمْ ﴾ يعنى : حصونهم . كذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم ، ومنه سميت صياصي البقر ، وهى قرونها ؛ لانها أعلى شىء فيها ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف ؛ لانهم كانوا مالوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ ، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا في الدنيا ، فانعكس عليهم الحال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرِبْنَا نَقْتَوْنَ وَأَسْرُونَ فَرِيقًا ﴾ ، فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء . روى الإمام أحمد عن عطية القرظى قال : عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة فشكوا في ، فأمر بى النبي ﷺ أن ينظروا : هل أثبت بعد ؟ فنظروا فلم يجدونى أثبت ، فخلى عنى والحقنى بالسبى . وكذا رواه أهل السنن . وقال الترمذى : حسن صحيح (٢) . ورواه النسائى بنحوه (٣) .

وقوله : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ أى : جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وَأَرْضًا لَمْ تَطْفَرُوهَا ﴾ : قيل : خير . وقيل : مكة . وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مرادا . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ روى الإمام أحمد عن علقمة بن وقاص قال : أخبرتنى عائشة قالت : خرجت يوم الخندق أتقو الناس ، فسمعت وثيد الأرض ورائى ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجته ، قالت : فجلست إلى الأرض ، فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه ، فانا أتخوف على أطراف سعد ، قالت : وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم ، فمر وهو يرتجز ويقول :

لَبِثْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَمَلٌ
مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

قالت : فسمت فافتحمت حديفة ، فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيهم رجل عليه تسبغة له - تعنى المغفر - فقال عمر : ما جاء بك ؟ لعمرى والله إنك لجرئثة ، وما يؤمنك أن يكون بلاه أو يكون تحوز . قالت : فما زال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت بى ساعتئذ ، فدخلت فيها ، فرفع الرجل التسبغة عن وجهه ، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال : يا عمر ، ويحك ، إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى ؟ قالت : ويرمى سعدا رجل من قريش ، يقال له : ابن العرقة بسهم ، وقال له : خذها وأنا ابن العرقة فأصاب أكحله فقطعه ، فدعا الله سعد فقال : اللهم ، لا تمتنى حتى تُقر عينى من قريظة . قالت : وكانوا حلفاءه ومواليه فى

(١) البخارى (٣٠٤٣) .

(٢) المسند (٣١١/٥) ، وأبو فلود (٤٤٠٤) ، والترمذى (١٥٨٤) ، والنسائى (٤٩٨١) ، وابن ماجه (٢٥٤٢) وصححه الألبانى .

(٣) النسائى فى الكبرى (٨٦١٩) .

الجاهلية، قلت: فرقا كلمه ، وبعث الله الريح على المشركين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . فلحق أبو سفيان ومن معه بنهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيمهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من آدم فضربت على سعد في المسجد ، قالت : فجاهه جبريل ، عليه السلام ، وإن على ثيابه لتقع الغبار ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ لا ، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح ، أخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم . قالت : فليس رسول الله ، لامته ، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا ، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بنى غنم وهم جيران المسجد حوله فقال : ومن مر بكم ؟ قالوا : مر بنا دحية الكلبي - وكان دحية الكلبي تشبه لحية ، وسنه ووجهه جبريل ، عليه الصلاة والسلام ، فاتاهم رسول الله ﷺ فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة ، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبيح . قالوا : نزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله ﷺ : « انزلوا على حكم سعد بن معاذ » . فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد ابن معاذ] (١) فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه ، وحف به قومه ، فقالوا : يا أبا عمرو ، حلفاؤك ومواليك وأهل النكابة، ومن قد علمت ، قالت : ولا يرجع إليهم شيئا ، ولا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لى الأباالى فى الله لومة لائم . قال : قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » . فقال عمر : سيدنا الله . قال : « أنزلوه » . فأنزلوه ، قال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم » . قال سعد: فإني احكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسي ذراريهم ، وتقسم أموالهم ، فقال رسول الله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » . ثم دعا سعد فقال : اللهم ، إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئا ، فأبقني لها . وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم ، فأبقضني إليك . قال : فانفجر كلمه ، وكان قد برئ منه إلا مثل الخرص ، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله .

قالت عائشة : فحصره رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وعمر: قالت : فوالذى نفس محمد بيده ، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر ، وأنا فى حجرتى . وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ رَحْمَةً مِنْهُمْ ﴾ . قال علقمة : فقلت : أى أمه ، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع ؟ قالت : كانت عينه لا تدمع على أحد ، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته . وقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة نحوا من هذا ، ولكنه أخصر منه ، وفيه دعاء سعد ، رضى الله عنه (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُ أَنْ كُنْتَ نَرْدَكُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّهَا فَتَعَالَى أَمِيتَكُنْ وَأَسْرَحَكُنْ سَرَا حَمِيْلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتَ نَرْدَكُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْأَرْضَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزيتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله

(١) ما بين المعقوفين ليس فى المخطوطة ، وأثبتاه من المطبوعة والمسند .

(٢) المسند (١٤١/٦) ، والبخارى (٤١١٧) ، ومسلم (١٧٦٩/٦٥) .

في ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن ، رضى الله عنهن وأرضاهن ، الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

روى البخارى عن عائشة ، زوج النبي ﷺ : أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أرواحه ، فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال : « إني ذاك لك أمراً ، فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمرى أبويك » ، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه . قالت : ثم قال : « وإن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجِكُمْ ﴾ » إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففى أى هذا أستأمر أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة (١) . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قالت عائشة : أنزلت آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نسائه ، فقال : « إني ذاك لك أمراً ، فلا عليك الا تعجلي حتى تستأمرى أبويك » . قالت : قد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه . قالت : ثم قال : « إن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجِكُمْ ﴾ » الآيتين . قالت عائشة : فقلت : أفى هذا أستأمر أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن ، فقلن مثل ما قالت عائشة ، رضى الله عنهن . وأخرجه البخارى ومسلم مثله (٢) . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ، فلم يعدها علينا شيئاً . أخرجه (٣) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : أقبل أبو بكر ، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس يبابه جلوس ، والنبي ﷺ جالس ، فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لا كلمن النبي ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة آنفاً ، فوجأت عنقها . فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناعته وقال : « من حولي يسألني النفقة » . فقام أبو بكر ، رضى الله عنه ، إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ، رضى الله عنه ، إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسالان النبي ﷺ ما ليس عنده . فنهاما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه : والله لا نسال رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله ، عز وجل ، الحيار ، فبدأ بعائشة فقال : « إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمرى أبويك » . قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجِكُمْ ﴾ الآية ، قالت عائشة ، رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل اختار الله ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نساك ما اخترت . فقال : « إن الله تعالى لم يعثنى معنفاً ، ولكن بعثنى معلماً مسيراً ، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » . انفرد بإخراجه مسلم (٤) .

وقد اختلف العلماء فى جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن ، على قولين ، وأصحهما نعم لو وقع ، ليحصل المقصود من السراح ، والله أعلم . قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نساء ، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حنيفة النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضى الله عنهن وأرضاهن .

(١) البخارى (٤٧٨٥) .

(٢) البخارى (٤٧٨٦) ، ومسلم (٢٢/١٤٧٥) .

(٣) المسند (٤٥/٦) ، والبخارى (٥٢٦٢) ، ومسلم (٢٤/١٤٧٧) .

(٤) المسند (٣٢٨/٣) ، ومسلم (٢٩/١٤٧٨) .

﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَمَّعَ صَاحِبًا نَفْسَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى واعظاً لنساء النبي ﷺ ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ ، ان يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بان من يات منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس: وهي الشوز وسوء الخلق. وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لا يقتضى الوقوع كقوله تعالى : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر : ٦٥] ، وكقوله : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ [الانعام : ٨٨] ، ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ [الزخرف : ٨١] ، ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لأصفح مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ [الزمر : ٤] . فلما كانت محلتهن رفيعة ، ناسب ان يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً ، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ؛ ولهذا قال : ﴿ من يأت منكم بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ قال زيد بن اسلم: في الدنيا والآخرة ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ أى : سهلاً هيناً .

ثم ذكر عدله وفضله في قوله : ﴿ ومن يقتل لله ورسوله ﴾ أى : يطع الله ورسوله ويستجيب ﴿ نفوسها أجراً مرتين وأعدنا لها رزقاً كريماً ﴾ أى : في الجنة ، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين ، فوق منازل جميع الخلائق ، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش .

﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسَمَنٌ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُسَلُّ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

هذه آداب أمر الله بها نساء النبي ﷺ ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك ، فقال مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن ، فإنه لا يشبهن أحد من النساء ، ولا يلحقهن في القضية والمنزلة ، ثم قال : ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ قال السددي وغيره : يعني بذلك : ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ؛ ولهذا قال : ﴿ فليطمع الذي في قلبه مرض ﴾ أى : دغل ﴿ وقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن زيد : قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير . ومعنى هذا : أنها تخاطب الاجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى : لا تخاطب المرأة الاجانب كما تخاطب زوجها .

وقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أى : الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج الشرعية : الصلاة في المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله ﷺ : ﴿ لا تمتعوا إماء الله مساجد الله ، وليخرجن وهن ثقلات ﴾ (١) ، وفي رواية : ﴿ وبيوتهن خير لهن ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي

(٢) أبو داود (٥٦٧) وصححه الالباني .

(١) أبو داود (٥٦٥) وصححه الالباني .

الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة: ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجُ الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى﴾ يقول : إذا خرجت من بيوتكن - وكانت لهن مشية وتكسر وتفتخ - فتهى الله عن ذلك . وقال مقاتل بن حيان : ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجُ الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى﴾ : والتبرج : أنها تلقى الخمار على رأسها ، ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنفها ، ويبدو ذلك كله منها ، وذلك التبرج ، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج .

وقوله : ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَأَتِينَ الزُّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ : نهان اولاً عن الشر ثم امرهن بالخير ، من إقامة الصلاة ، وهي : عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهي : الإحسان إلى المخلوقين ﴿وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص .

وقوله : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ : وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا ؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً ، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح .

فإن كان المراد أنهم كنَّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ، ففي هذا نظر ؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أهم من ذلك .

روى ابن جرير عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة : خرج رسول الله ﷺ ذات غداة ، وعليه مرط مُرْحَلٌ من شعر أسود ، فجاء الحسن فأدخله معه ، ثم جاء الحسين فأدخله معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ، ثم جاء علي فأدخله معه ، ثم قال : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ . ورواه مسلم (١) .

وروى مسلم في صحيحه عن يزيد بن حيان قال : اتطلقت أنا وحُصَيْنُ بن سَبْرَةَ وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ؛ حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ . قال : يا بن أخي ، والله لقد كبرت سنِّي ، وقدم عهدي ، ونسيت بعض الذي كنت أحمى من رسول الله ﷺ ، فما حدثتكم فاقبلوا ، وما لا فلا تكلفونيهِ . ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بما يدعى خُماً - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر ، ثم قال : «أما بعد ، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين ، وأولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » . فحث على كتاب الله ورعّب فيه ، ثم قال : «وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » ثلاثاً . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال هم آل علي ، وآل عقیل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم (٢) .

ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ ، فإن سياق الكلام معهن ؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَلْقَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي : اعلمن بما ينزل الله على رسوله في بيوتكن من

(٢) مسلم (٨-٣٦/٢٤٠) .

(١) الطبري (٥/٢٢) ، ومسلم (٣٦/٢٠٨١) .

[الحجرات : ١٤] . وفي الصحيحين : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . فيسلبه الإيمان ، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين .

وقوله : ﴿ وَالْقَاتِنِينَ وَالْقَاتِنَاتِ ﴾ القنوت : هو الطاعة فى سكون ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَاتِنٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَاتِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ [الروم : ٢٦] ، ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣] ، ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ، فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها ، ثم القنوت ناشئ عنها .

﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ : هذا فى الأقوال ، فإن الصدق خصلة محمودة ؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجَرَّبْ عليه كذبة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام ، وهو علامة على الإيمان ، كما أن الكذب اشارة على النفاق ، ومن صدق نجا .

﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ : هذه سَجِيَّةُ الْإِنْبِيَاءِ ، وهى الصبر على المصائب ، والعلم بأن المقدر كائن لا محالة ، وَتَلَقَّى ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أى : أصعبه فى أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه ، وهو صدق السجية وثباتها . ﴿ وَالْعَاشِينَ وَالْعَاشِيَاتِ ﴾ الخشوع : السكون والطمأنينة ، والتؤدة والوقار والتواضع . والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته . ﴿ وَالْمُتَّصِدِّقِينَ وَالْمُتَّصِدِّقَاتِ ﴾ الصدقة : هى الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء ، الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، يعطون من فضول الأموال طاعة لله ، وإحسانا إلى خلقه ، وقد ثبت فى الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (١) . وفى الحديث الآخر : « والصدقة تطفى الخطيئة ، كما يطفى الماء النار » (٢) . والاحاديث فى الحث عليها كثيرة جداً ، له موضع بذاته .

﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ : قال سعيد بن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل فى قوله : ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ .

ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة - كما قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (٣) - ناسب أن يذكر بعده : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ أى : عن المحارم والمآثم إلا عن المباح ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْيُنِنَا قَانِتُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥ - ٧] .

وقوله : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ : روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : كان النبى ﷺ يسير فى طريق مكة ، فأتى على جمدان فقال : « هذا جمدان ، سيروا فقد سبق المُفْرَدُونَ » . قالوا : وما المُفْرَدُونَ ؟ قال : « الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » . ثم قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : « والمقصرين » . تفرد به

(١) البخارى (١٤٢٣) ، ومسلم (٣١/١٠٩١) .

(٢) الترمذى (٦١٤) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « الحديث صحيح فله شواهد تؤيد صحته » .

(٣) البخارى (٥٠٦٦) ، ومسلم (١/١٤٠٠) .

من هذا الوجه ، ورواه مسلم دون آخره (١) .

وقوله : ﴿ اَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ خير عن هؤلاء المذكورين كلهم ، ان الله تعالى قد أعد لهم اى : هيا لهم منه لذنوبهم مغفرة واجرًا عظيمًا وهو الجنة .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾

عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فاستكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حبا - وكانت امرأة فيها حدة - فانزل الله ، عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية كلها .

وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : أنها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة ، فامتنعت ثم أجابت . وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت أول من هاجر من النساء - يعنى : بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي ﷺ ، فقال : قد قبلت فزوجها زيد بن حارثة - يعنى والله أعلم بها فراقه زينب - فسخطت هي وأخوها وقالوا : إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده . قال : فنزل القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية .

وروى الإمام أحمد عن أبى برزة الاسلمى ان جلييبا كان امرا يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن ، فقلت لامراتى : لا يدخلن اليوم عليكم جلييب فإنه إن دخل عليكم لافعلن ولافعلن . قال : وكانت الانصار إذا كان لاحدهم ايم لم يزوجها حتى يعلم : هل لنى الله ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال رسول الله ﷺ لرجل من الانصار : « زوجنى ابنتك » . قال : نعم ، وكرامة يا رسول الله ، ونعمة عين . فقال : « إنى لست أريدها لنفسى » . قال : فلمن يارسلو الله ؟ قال : « لجلييب » .

فقال : يا رسول الله ، أشاور أمها . فأتى أمها فقال : رسول الله ﷺ يخطب ابنتك ؟ فقالت نعم ونعمة عين . فقال : إنه ليس يخطبها لنفسه ، إنما يخطبها لجلييب . فقالت : أجلييب إنيه ؟ أجلييب إنيه ؟ لا لعمر الله لا تزوجه . فلما أراد أن يقوم لياتى رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها ، قالت الجارية : من خطبنى اليك ؟ فأخبرتها أمها . قالت : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟! ادفعونى إليه ، فإنه لن يضيعنى . فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : شألك بها . فزوجها جلييبا . قال : فخرج رسول الله ﷺ فى غزاة له ، فلما آفاه الله عليه قال لاصحابه : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نفقد فلانا ونفقد فلانا . قال : « انظروا هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : لا . قال : « لكنى أفقد جلييبا » . قال : « فاطلبوه فى القتلى » . فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فقالوا : يا رسول الله ، ما له سبى إلا ساعد النبى ﷺ . ثم وضعه فى قبره ، ولم يذكر أنه غسله ، رضى الله عنه .

قال ثابت : فما كان في الانصار آيم أنفق منها .

وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتاً : هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ ؟ فقال : اللهم ، صب عليها الخير صبا ، ولا تجعل عيشها كدأ ، كنا قال ، فما كان في الانصار آيم أنفق منها . هكذا أورده الإمام أحمد بطوله ، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله (١) .

وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت في خدرها : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ تلت هذه الآية : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » (٢) . عن طاوس قال : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر ، فنهاه ، وقرأ ابن عباس ، رضى الله عنه : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » .

فهذه الآية عامة في جميع الامور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لاحد مخالفته ولا اختيار لاحد هاهنا ، ولا رأى ولا قول ، كما قال تعالى : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » [النساء : ٦٥] ، ولهذا شدد في خلاف ذلك ، فقال : « ومن بعض الله ورسوله فقد حلّ حلالاً علينا » ، كقوله تعالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [النور : ٦٣] .

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا »

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذى « أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » أى : بالإسلام ومتابعة الرسول ، عليه افضل الصلاة والسلام « وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » أى : بالعتق من الرق ، وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر ، حبيبا إلى النبي ﷺ ، يقال له : الحَبِّ ، ويقال لابنه أسامة : الحَبِّ ابن الحَبِّ . عن أسامة بن زيد قال : كنت في المسجد ، فأتاني العباس وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنهما ، فقالا : يا أسامة ، استأذن لنا على رسول الله ﷺ . قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقلت : على والعباس يستأذنان ؟ فقال : أتدرى ما حاجتهما ؟ « فقلت : لا يا رسول الله . فقال : لكنى ادرى » ، قال : فأذن لهما . قال : يا رسول الله ، جئناك لتخبرنا : أى أهلك أحب إليك ؟ فقال : « أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد » ، قال : يا رسول الله ، ما نسألك عن فاطمة . قال « فأسامة بن زيد بن حارثة ، الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه » (٣) .

وكان رسول الله ﷺ قد روجه بابتة عمته زينب بنت جحش الاسدية - وأمها أميمة بنت عبد المطلب - وأصدقها عشرة دنانير ، وستين درهما ، وخمارا ، وملحقة ، ودرعاً ، وخمسين مئداً من طعام ، وعشرة أمداد من تمر ، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ، ثم وقع بينهما ، فجاء زيد

(١) المسند (٤/٤٢٢) ، ومسلم (١٤٥/٢٤٨٢) ، والنسائي في الكبرى (٨٢٤٦) .

(٢) الاستيعاب (١/٢٥٩) .

(٣) الترمذى (٣٨١٩) بنحوه ، وقال : « حديث حسن صحيح » .

يشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له : « أمسك عليك زوجك ، واتق الله » . قال الله تعالى : ﴿ وَتَغْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقد روى البخارى أيضاً بعضه مختصراً عن انس بن مالك قال : إن هذه الآية : ﴿ وَتَغْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ نزلت فى شان زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة ، رضى الله عنهما (١) .

وروى ابن جرير عن عائشة ، أنها قالت : لو كنتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله ، لكنتم : ﴿ وَتَغْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ : الوطر : هو الحاجة والأرب ، أى : لما فرغ منها ، وفارقها ، زوّجناكها ، وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله ، عز وجل ، بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر . وروى الإمام أحمد عن انس ، رضى الله عنه ، قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « اذهب فاذكرها على » . فانطلق حتى أتاها وهى تُحَمَّرُ عجبينها ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى - حتى ما أستطيع أن أنظر إليها - أن رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهري ونكصت على عقبى ، وقلت : يا زينب ، أبشرى ، ارسلنى رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي ، عز وجل . فقامت إلى مسجدنا ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتبع حُجْر نسانه يسلم عليهن ، ويقولن : يا رسول الله ، كيف وجدت اهلك ؟ فما أدرى أنا أخيرته أن القوم قد خرجوا أو أخير . قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت ادخل معه ، فألقى الستريينى وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعظ القوم بما وعظوا به : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ الآية . ورواه مسلم والنسائى (٣) .

وقد روى البخارى عن انس بن مالك ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول : (روجكن أهاليكن وروجنى الله من فوق سبع سموات) (٤) .

وقوله : ﴿ لَكُمْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَدْعِيَانَهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى : إنما أبحنا لك تزويجها وفضلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج المطلقات الأديعاء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له : « زيد بن محمد » ، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ زاد ذلك بيانا وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش ، لما طلقها زيد بن حارثة ؛ ولهذا قال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلَ أَبْنَاتِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ليحترز من الابن الدعى ؛ فإن ذلك كان كثيرا فيهم .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أى : وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتمه ، وهو

(٢) ابن جرير فى التفسير (١١/٢٢) .

(١) البخارى (٤٧٨٧) .

(٣) المسند (٣/١٩٥) ، ومسلم (٨٩/١٤٢٨) ، والنسائى فى سننه (٣٢٥٢) .

(٤) البخارى (٧٤٢٠) .

كائن لا محالة ، كانت زينب فى علم الله ستصير من ارواج النبی ﷺ .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾

يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أى : فيما احل له وامره به من تزويج زينب التى طلقها دعيه زيد بن حارثة .

وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : هذا حكم الله فى الانبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشئ وعليهم فى ذلك حرج ، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد مولاة ودعيه ، الذى كان قد تبناه ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أى : وكان امره الذى يقدره كائنًا لا محالة ، وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

يمدح تبارك وتعالى ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أى : إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ أى : يخافونه ولا يخافون احداً سواه فلا تمتعهم سطوة احد عن إبلاغ رسالات الله ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى : وكفى بالله ناصرًا ومعينًا . وسيد الناس فى هذا المقام - بل وفى كل مقام - محمد رسول الله ﷺ ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ، إلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ، صلوات الله عليه ، فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف : ١٥٨] ، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه ، بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره ، وحضره وسفره ، وسره وعلايته ، فرضى الله عنهم وأرضاهم . ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدى المهتلون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فتسال الله الكريم الثنان أن يجعلنا من خلفهم .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ نهى تعالى أن يقال بعد هذا : « زيد بن محمد » أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه ، فإنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ؛ فإنه ولد له القاسم ، والطيب ، والطاهر ، من خديجة فماتوا صغاراً ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضاً رضيعاً ، وكان له من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، رضى الله عنهم أجمعين ، فمات فى حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به ، صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ماتت بعده لسته أشهر .

وقوله : ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ كقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ ﴾ [الانعام : ١٢٤] فهذه الآية نص فى أنه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأخرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ، ولا ينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة . روى الإمام أحمد

عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « مثل في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبيتين ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ! فإنا في النبيين موضع تلك اللبنة » .

ورواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح (١) . وروى أبو داود الطيالسي عن عبد الله [بن مسعود] قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ! فإنا موضع اللبنة ، ختم بي الأنبياء ، عليهم السلام » . ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وقال الترمذى : صحيح غريب من هذا الوجه (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ومثل النبيين من قبلى كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا لبنة واحدة ، فنجت أنا فأتمت تلك اللبنة » . انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش ، به (٣) . وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت لى الخلق كافة ، وختم بي النبيون » . ورواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٤) . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة ، فنجت أنا فأتمت تلك اللبنة » . ورواه مسلم (٥) .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ ، إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الخفيف له . وقد أخبر تعالى فى كتابه ، ورسوله فى السنة المتواترة عنه : أنه لا نبى بعده ؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك ، دجال ضال ، مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والتبرجات ، فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله ، سبحانه وتعالى ، على يد الأسود العنسى باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ، ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان ، لعنهما الله . وكذلك كل مدعٍ لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها . وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرؤن بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون فى غاية الإفاك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الآية [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] . وهذا بخلاف الأنبياء ، عليهم السلام ، فإنهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرؤن به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من

(١) المسند (٥/١٣٦) ، والترمذى (٣٦١٣) .

(٢) أبو داود فى مسنده (١٧٨٥) ، والبخارى (٣٥٣٤) ، ومسلم (٢٣/٢٢٨٧) ، والترمذى (٢٨٦٢) .

(٣) المسند (٩/٣) ، ومسلم (٢٠/٢٢٨٦) .

(٤) مسلم (٥/٥٢٣) ، والترمذى (١٥٥٣) ، وابن ماجه (٥٦٧) .

(٥) تقدم قريباً .

الخوارق للمعادات ، والادلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمرا ما دامت الارض والسماوات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُكُمْ يُمَخِّرُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى ، المتعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن ، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أتيتكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقكم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله ، عز وجل » . وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه (١) .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله بن بسر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، أى الناس خير؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » . وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فمرنى بأمر أتشبه به . قال : « لا يزال لسانك رطبا بذكر الله » . وروى الترمذى وابن ماجه الفصل الثانى ، وقال الترمذى : حسن غريب (٢) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه ، إلا رأوه حسرة يوم القيامة » (٣) .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ : إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال عذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدا يتهى إليه، ولم يعذر أحدا فى تركه ، إلا مغلوبا على تركه ، فقال : ﴿ فاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٣] ، بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلاية، وعلى كل حال، وقال : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته .

والاحاديث والآيات والآثار فى الحث على ذكر الله كثيرة جدا ، وفى هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك . وقد صنف الناس فى الأذكار المتعلقة بأناء الليل والنهار كالتسائى والمعمرى وغيرهما ، ومن أحسن الكتب المؤلفة فى ذلك كتاب الأذكار للشيوخ محبى الدين النووى .

وقوله : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : عند الصباح والمساء ، كقوله : ﴿ فَسَبِّحْهُنَّ حِينَ تَقُومْنَ ﴾

(١) المسند (٥/١٩٥) ، والترمذى (٣٣٧٧) ، وابن ماجه (٣٧٩٠) وصححه الألبانى .

(٢) المسند (٤/١٩٠) ، والترمذى (٣٣٧٥) ، وابن ماجه (٣٧٩٣) ، وصححه الألبانى .

(٣) المسند (٢/٢٢٤) وقال الهيمى فى الزوائد (١٠/٨٣) : « رجاله رجال الصحيح » .

وَحِينَ تَصْبَحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿ [الروم : ١٧ ، ١٨] .

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ : هذا تهيج إلى الذكر ، أى : إنه سبحانه يذكركم فأذكروه أنتم ، كقوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَأذْكَرُونِي أَذْكَرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] . وقال النبي ﷺ : « يقول الله : من ذكرني في نفسه ذكرت في نفسي ، ومن ذكرني في مَلَأ ذكرت في مَلَأ خير منهم » (١) .

والصلاة من الله ثاؤه على العبد عند الملائكة ، حكاه البخارى عن ابى العالية . ورواه ابو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عنه . وقال غيره : الصلاة من الله : الرحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله اعلم .

وأما الصلاة من الملائكة ، فيمعنى الدعاء للناس والاستغفار ، كقوله : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ الآية [غافر : ٧ - ٩] .

وقوله : ﴿ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى : سبب رحمته بكم وثنائه عليكم ، ودعاء ملائكته لكم ، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين . ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا : فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، وبصّرهم الطريق الذى ضلّ عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم عن الطغام . وأما رحمته بهم فى الآخرة : فأمنهم من الفزع الأكبر ، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبيشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وما ذاك إلا لمحبتهم ورأفته بهم . روى الإمام أحمد عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : مر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسمى وتقول : ابنى ، ابنى ، وسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ، ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار . قال فحفظهم رسول الله ﷺ وقال : « لا والله ، لا يلقى حبيبه فى النار » (٢) . إسناده على شرط الصحيحين ، ولم يخرجها أحد من أصحاب الكتب الستة ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها ، فألصقته إلى صدرها ، وأرضعته فقال : « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ » قالوا : لا . قال : « فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها » (٣) .

وقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ : الظاهر أن المراد - والله أعلم - ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أى : من الله تعالى يوم يلقونه ﴿ سَلَامٌ ﴾ أى : يوم يسلم عليهم كما قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] . وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى بعضهم بعضا بالسلام ، يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير . قلت : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرُجُوا

(٢) المسند (٣/٤ - ١) .

(١) البخارى (٥/٧٤) ، ومسلم (١/٢٦٧٥) .

(٣) البخارى (٥٩٩٩) .

ذَعَرَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ [يونس : ١٠] .

وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يعنى : الجنة وما فيها من المآكل والشارب ، والملابس والمسكن ، والمناكح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١١﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١٢﴾ وَيُبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿١٣﴾ وَلَا تَطْعَمُ الْكُافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحررا للأمين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا . وقد رواه البخارى (١) .

وقوله : ﴿ شَاهِدًا ﴾ أى : لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره ، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة ، ﴿ وَجِنَاتِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : بشيرا للمؤمنين بجزيل الثواب ، ونذيرا للكافرين من ريب العقاب .

وقوله : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أى : داعيا للخلق إلى عبادة ربه عن أمره لك بذلك ، ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ أى : وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق ، كالشمس فى إشراقها وإضاءتها ، لا يجحدها إلا معاند .
وقوله : ﴿ وَلَا تَطْعَمُ الْكُافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَذْنَهُمْ ﴾ أى : لا تطعمهم وتسمع منهم فى الذى يقولونه ﴿ وَدَعَّ أَذْنَهُمْ ﴾ ، أى : اصفح وتجاوز عنهم ، وكل أمرهم إلى الله ، فإن فيه كفاية لهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَمْتَدُّوْنَهَا فَمَتِعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة . منها : إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها ، وقد اختلفوا فى النكاح : هل هو حقيقة فى العقد وحده ، أو فى الوطء ، أو بهما ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده ، إلا فى هذه الآية فإنه استعمل فى العقد وحده ؛ لقوله : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ ﴾ . وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها .

وقوله : ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ : خرج مخرج الغالب ؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتيبة في ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس ، وسعيد بن المسيب وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ ، فعقب النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله . وهذا مذهب الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وطائفة كثيرة من السلف والخلف .

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح ؛ فيما إذا قال : « إن تزوجت فلانة فهي طالق » ؛ فعندهما متى تزوجها طلقت منه . واختلفا فيما إذا قال : « كل امرأة أتزوجها فهي طالق » . فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه ، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية .

عن ابن عباس قال : إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، قال : ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ الآية . وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك » . رواه الإمام أحمد والترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن » (١) .

وقوله عز وجل : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عُدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا ﴾ : هذا أمر مجمع عليه بين العلماء : أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتزوج في فورها من شامت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَتَّوْنَهُنَّ وَسَرَحوْنَهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ : المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وقال : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّوْنَهُنَّ عَلَى الْمَوْسَعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ تَعَاوَا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] . وفي صحيح البخاري ، عن سهل بن سعد وأبي أسيد ؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها ، فكانها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين (٢) .

قال ابن عباس : إن كان سمي لها صداقا ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمي لها صداقا فاعتها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ النَّبِيَّاتِ وَأَنْتَ أَجُورُهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَنِسَاءَ عَمِكَ وَنِسَاءَ عَمَّتِكَ وَنِسَاءَ خَالَكَ وَنِسَاءَ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ

(١) المسند (٦٧٦٩)، والترمذي (١١٨١)، وأبو داود (٢١٩١)، وابن ماجه (٢٠٤٧). وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده

صحيح » .

(٢) البخاري (٥٢٥٦، ٥٢٥٧) .

وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلًا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن، وهى الأجور هاهنا . كما قاله مجاهد وغير واحد ، وقد كان مهره لثنتي عشرة أوقية وثناً (١) وهو نصف أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم ، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى اربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حنيفة فإنه اصطفاهما من سبى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت الحارث المصقلية ، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها ، رضى الله عن جميعهن .

وقوله : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أى : وأباح لك التسرى بما أخذت من المغنم ، وقد ملك صفية وجويرية فاعتقهما وتزوجهما . وملك ربحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ، عليه السلام ، وكانتا من السراى .

وقوله : ﴿ وَبَنَاتُ عَمِّكَ وَبَنَاتُ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتُ خَالَكَ وَبَنَاتُ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ : هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعممة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما قرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع فظيع . وإنما قال : ﴿ وَبَنَاتُ عَمِّكَ وَبَنَاتُ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتُ خَالَكَ وَبَنَاتُ خَالَاتِكَ ﴾ فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه ، وجمع الإناث لتقصهن كقوله : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ [النحل : ٤٨] ، ﴿ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الانعام : ١] ، وله نظائر كثيرة .

وقوله : ﴿ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ : قال أبو رزین وقتادة : إن المراد : من هاجر معه إلى المدينة . وفى رواية عن قتادة : ﴿ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ أى : أسلمن .

وقوله : ﴿ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أى : ويحل لك - يا أيها النبي - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شيطان ، كقوله تعالى إخباراً عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ وَلَا يَفْعَلْكُمْ فِئْتَابًا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] ، وكقول موسى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ سُلَيْمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤] . وقال هاهنا : ﴿ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ ، وقد روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدي : أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله ، إنى قد وهبت نفسى لك . فقامت قياماً طويلاً ، فقام رجلاً فقال : يا رسول الله ، زوّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله ﷺ : « هل عندك من شيء تُصدقها إياه » ؟ فقال : ما عندي إلا إزارى هذا . فقال رسول الله ﷺ : « إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئاً » . فقال : لا أجد شيئاً . فقال : « التمس ولو خاتماً من حديد » فالتمس فلم يجد شيئاً ، فقال له النبي ﷺ : « هل معك من القرآن شيء » ؟ قال : نعم ؛ سورة كذا ، وسورة كذا - لسور بسميها - فقال له

(١) فى المطبوعة : «ونشر» وهو خطأ . وفى المصباح المنير : «والنشر» نصف الأوقية مادة (ن ش ر) .

رسول الله ﷺ : « زوجتكما بما معك من القرآن » . أخرجاه (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس قال : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ، هل لك في حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياها . فقال : « هي خير منك ، رغبت في النبي ، فعرضت عليه نفسها » . انفرد بإخراجه البخاري (٢) .

وقوله : « خَالِصَةٌ لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » قال عكرمة : أى لا تحمل الموهوبة لغيرك ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحمل له حتى يعطيها شيئاً . أى : أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل ، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها ، ولهذا قال قتادة في قوله : « خَالِصَةٌ لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » ، يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ .

وقوله تعالى : « قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ » أى : من حَصَرَهُمْ فِي أَرْبَعِ نِسْوَةٍ حُرَّاتٍ وَمَا شَاؤُوا مِنَ الْإِمَاءِ ، واشترط الولي والمهر والشهود عليه ، وهم الأمة ، وقد رخصنا لك في ذلك ، فلم نوجب عليك شيئاً منه « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » .

﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَيْتِ مَنَ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة ؛ أنها كانت تُعَيِّرُ النِّسَاءَ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قالت : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأنزل الله ، عز وجل : « تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَيْتِ مَنَ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ » ، قالت : إني أرى ربك يسارع لك في هواك (٣) .

قوله : « تَرْجِي » أى : توخر « مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ » أى : من الواهيات « وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ » أى : من شئت قبلتها ، ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فانت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك ، إن شئت عدت فيها فأوتيتها ؛ ولهذا قال : « وَمِنْ ابْتِغَيْتِ مَنَ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ » .

وقال آخرون : بل المراد بقوله : « تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ » أى : من أزواجك ، لا حرج عليك أن تترك القسم لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجماع من شئت ، وتترك من شئت . هكذا يروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم ، ومع هذا كان صلوات الله وسلامه عليه ، يقسم لهن ؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ، وصلوات الله وسلامه عليه ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة . وروى البخاري عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : « تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَيْتِ مَنَ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ » ، فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلي فإني لا أريد يا رسول الله أن أوتر عليك أحداً (٤) . فهذا

(١) السنن (٥/٣٣٦) ، والبخاري (٥١٣٥) ، ومسلم (٨٦/١٤٢٥) .

(٢) السنن (٣/٢٦٨) ، والبخاري (٥١٢٠) .

(٣) السنن (٦/١٥٨) ، والبخاري (٤٧٨٨) .

(٤) البخاري (٤٧٨٩) .

الحديث عنها يدل على عدم وجوب القسم ، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده ، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم . وهذا الذي اختاره حسن جيد قوى ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدَّتْ أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِنَّ وَلَا يَحْزَنُوا وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ ﴾ أى : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك فى أى ذلك فعلت ، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب ، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك فى ذلك ، واعترفن بمتك عليهن فى قسمك لهن وتسويتك بينهن وانصافك لهن وعدلك فيهن .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى : من الميل إلى بعضهن دون بعض ، مما لا يمكن دفعه ، كما روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نساؤه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » . ورواه أهل السنن الأربعة ، وزاد أبو داود بعد قوله : فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك : يعنى القلب . وإسناده صحيح ، ورجاله كلهم ثقات (١) . ولهذا عقب ذلك بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أى : بضماائر السرائر ، ﴿ حَلِيمًا ﴾ أى : يحلم ويغفر .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾

ذكر غير واحد من العلماء - كابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، وابن جرير ، وغيرهم - أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن ، على حسن صنعتهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله ﷺ ، كما تقدم فى الآية . فلما اخترن رسول الله ﷺ ، كان جزاؤهن أن الله قصره عليهن ، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يتبدل بهن أزواجاً غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن إلا الإمام والسراى فلا حجر عليه فيهن . ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر فى ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له الزواج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوّج لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن .

وقال آخرون : بل معنى الآية : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ ﴾ أى : بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللتنا لك من نساك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ، وبنات العم والعمات والحالات والحالات والواهبية وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك . هذا مروى عن أبى بن كعب ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك وغيرهم .

واختار ابن جرير أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفى النساء اللواتى فى عصمته وكن تسعاً . وهذا الذى قاله جيد ، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف ؛ فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ، ولا منافاة ، والله اعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهنَّ ﴾ : فنهاه عن الزيادة عليهن ، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه .

(١) المسند (٤١/٦) ، وأبو داود (٢١٣٤) ، والترمذى (١١٤٠) ، والنسائى (٣٩٤٣) ، وابن ماجه (١٩٧١) .

﴿ يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِ بْنِ إِبْنِهِ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِجَدِيدِ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاتْلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

هذه آية الحجاب ، وفيها احكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] . وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتن ؟ فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأرواح النبي ﷺ لما حملان عليه في الغيرة : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ [التحریم : ٥] ، فنزلت كذلك (١) .

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش ، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ، فعن أنس بن مالك ، قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فَطَعَمُوا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبي ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت ، فحجبت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بيني وبينه ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ الآية (٢) .

فقوله : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ : حَظَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إياكم والدخول على النساء » (٣) .

ثم استثنى من ذلك فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرِ بْنِ إِبْنِهِ ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي غير متحيين نضجه واستواه ، أي : لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هنا يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفيل .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ . وفي صحيح مسلم عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب ، عرساً كان أو غيره » (١) . واصله في الصحيحين ، وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ : « لو دُعيت إلى ذراع لاجبت ، ولو أهدى إلى كراع لقبلت ، فإذا قرعتم من الذي دُعيت إليه فحففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا في الأرض » (٥) ؛

(٢) البخارى (٤٧٩١) ، ومسلم (٩٢/١٤٢٨) .

(١) البخارى (٤٠٢) .

(٤) مسلم (٩٦/١٤٢٩) .

(٣) البخارى (٥٢٢٢) ، ومسلم (٢٠/٢١٧٢) .

(٥) البخارى (٢٥٦٨) .

ولهذا قال : ﴿ وَلَا مُتَّبِعِينَ لِعَدِيثٍ ﴾ ، أى : كما وقع لاولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ، ونسوا أنفسهم ، حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾ . وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به ، لكن كان يكره أن يتهاهم عن ذلك من شدة حياته ، عليه السلام ، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى : ولهذا نهاكم عن ذلك ورجركم عنه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أى : وكما نهيتكم عن الدخول عليهن ، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أى : هذا الذى أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ قال : نزلت فى رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ . قال رجل لسفيان : أمى عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذاك . وكذا قال مقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم ، والسدى : أن الذى عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله ، حتى نزل التثية على محريم ذلك ؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفى عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده ؛ لأنهن أزواجه فى الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين . واختلفوا فىمن دخل بها ثم طلقها فى حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، ماخذهما : هل دخلت هذه فى عموم قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، فما نعلم فى حلها لغيره - والحالة هذه - نزاعا ، والله أعلم .

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك ، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنْ تَبَدَّوْا شَيْئًا أَوْ تَخَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى : مهما تكن ضمانتكم وتتطوى عليه مراتركم ، فإن الله يعلمه ؛ فإنه لا تخفى عليه خافية ، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّلُورُ ﴾ [غافر : ١٩] .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَقْبَعِينَ اللَّهُ إِلَهُكَ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استشهدهم فى سورة النور ، عند قوله : ﴿ وَلَا يُدْرِي بِيَّتِهِنَّ إِلَّا بُعُولُهُنَّ أَوْ آبَائُهُنَّ أَوْ أَبْنَاؤُهُنَّ أَوْ إِخْوَانُهُنَّ أَوْ إِخْوَانُ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ إلى آخرها [النور : ٣١] ، وفيها زيادات على هذه . وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته . وقد سأل بعض السلف فقال : لِمَ لَمْ يَذَكَرِ الْعَمَّ وَالْحَالَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ؟ فأجاب عكرمة والشمسي : بأنهما لم يذكرتا ؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبيهما .

وقوله : ﴿ وَلَا نِسَائِهِنَّ ﴾ : يعنى بذلك : عَدَمَ الاحتجاب من النساء المؤمنات ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعنى به : أرقاهن من الذكور والإناث ، قال سعيد بن المسيب : إنما يعنى به : الإمام فقط . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : ﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ اى : واخشيه فى الخلوة والعلاية ، فإنه شهيد على كل شىء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبن الرقيب .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

قال البخارى: قال أبو العالية : صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة : الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون : يبركون . هكذا علقه البخارى عنهما (١) . وروى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب : الرحمة ، وصلاة الملائكة : الاستغفار .

والمقصود من هذه الآية : أن الله سبحانه أخير عباده بمنزلة عبده ونبى عنه فى الملأ الأعلى ، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً .

وقد أخبر أنه ، سبحانه وتعالى ، يصلى على عباده المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ الآية [الاحزاب : ٤١ - ٤٣] . وقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ الآية [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] . وفى الحديث : « اللهم ، صل على آل أبى اوفى » (٢) . وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر - وقد سألته أن يصلى عليها وعلى زوجها - : « صلى الله عليك ، وعلى زوجك » (٣) .

وقد جاءت الاحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالامر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر ، والله المستعان .

روى البخارى عن كعب بن عجرّة قال : قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » (٤) .

وروى الإمام أحمد عن ابن أبى ليلى قال : لقينى كعب بن عجرّة فقال : الا أهدى لك هدية ؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، قد علمنا - أو : عرفنا - كيف السلام عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة (٥) .

ومعنى قولهم : « أما السلام عليك فقد عرفناه » : هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه ، كما كان يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

(١) فتح البارى (٥٣٢/٨) .

(٢) البخارى (١٤٩٧) ، ومسلم (١٠٧٨/١٠٧٦) .

(٣) المسند (٣/٣٩٨) ، وابن حبان فى صحيحه (١٩٥١ موارد) .

(٤) البخارى (٤٧٩٧) .

(٥) المسند (٤/٢٤١) ، والبخارى (٣٣٧٠ ، ٦٣٥٧ ، ٤٧٩٧) ، ومسلم (٦٦/٤٠٦) .

وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، كما صليت على آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » . قال أبو صالح ، عن الليث : « على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » . وأخرجه النسائى (١) . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن سُلَيْم أنه قال : أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا : يا رسول الله ، كيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وقد أخرجه بقية الجماعة ، سوى الترمذى (٢) . وروى مسلم عن أبى مسعود الأنصارى - قال : اتانا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد ابن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى ثمتنا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا : اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم » . وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى . وقال الترمذى : حسن صحيح (٣) . وروى الترمذى عن أبى بن كعب ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه » . قال أبى : قلت : يا رسول الله ، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « ما شئت » . قلت : الربع ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت : فالنصف ؟ قال : « ما شئت، فإن زدت فهو خير لك » . قلت : فالثلثين ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : « إذن تكفى همك ، ويغفر لك ذنبك » . ثم قال : هذا حديث حسن (٤) .

وروى الإمام أحمد عن أبى طلحة الأنصارى قال : أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس ، يرى فى وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يرى فى وجهك البشر ؟ قال : « أجل ، أتانى آت من ربى ، عز وجل ، فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة ، كتب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » . هذا إسناد جيد ، ولم يخرجوه (٥) . وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث إسماعيل بن جعفر ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى على واحدة ، صلى الله عليه بها عشراً » . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٦) .

وروى الإمام أحمد عن الحسين [بن على] : أن رسول الله ﷺ قال : « البخيل من ذُكرت عنده،

(١) البخارى (٤٧٩٨).

(٢) المسند (٤٢٤/٥)، والبخارى (٣٣٦٩)، ومسلم (٦٩/٤٠٧).

(٣) مسلم (٦٥/٤٠٥)، وأبو داود (٩٨٠)، والترمذى (٣٢٢٠)، والنسائى (١٢٨٥).

(٤) الترمذى (٣٤٥٧)، وقال : «حسن صحيح» .

(٥) المسند (٢٩/٤).

(٦) مسلم (٧٠/٤٠٨)، وأبو داود (١٥٣٠)، والترمذى (٤٨٥)، والنسائى (١٢٩٦).

ثم لم يصل على . وقال أبو سعيد : « فلم يصل على » . ورواه الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب صحيح (١) . وروى الترمذى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على . ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبير فلم يدخله الجنة » . ثم قال : حسن غريب (٢) . قلت : وقد رواه البخارى فى الأدب بنحوه (٣) . ورويناه من حديث محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، به . قال الترمذى : وفى الباب عن جابر وأنس .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن عجرة ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث فى أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَلْتَمِسْ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوى والحليمى ، وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة فى المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب فى بقية ذلك المجلس ، بل تستحب . نقله الترمذى عن بعضهم ، ويتأيد بالحديث الذى رواه الترمذى عن أبى هريرة ، عن النسبى ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » . تفرد به الترمذى من هذا الوجه . ورواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، مرفوعا مثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن (٤) .

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ، عليه السلام ، فى العمر مرة واحدة ، امتثالا لأمر الآية ، ثم هى مستحبة فى كل حال ، وهذا هو الذى نصره القاضى عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ فى الجملة . قال : وقد حكى الطبرى أن محمل الآية على الندب ، وادعى فيه الإجماع . قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة ، وما زاد على ذلك فمتدوب مرعب فيه من سنن الإسلام ، وشعار أهله . قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نيينه .

فمنه : بعد النداء للصلاة ؛ للحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على ؛ فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبى إلا لعبد من عبد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى (٥) . وروى الإمام أحمد عن رُوَيْفِعِ بْنِ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى على محمد وقال : اللهم ، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة ، وجبت له شفاعتى » . وهذا إسناد لا بأس به ، ولم يخرجوه (٦) .

(١) المسند (١٧٣٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح»، والترمذى (٣٥٤٦).

(٢) الترمذى (٣٥٤٥) وقال الألبانى : «حسن صحيح».

(٣) البخارى فى الأدب المقرد (٢١).

(٤) الترمذى (٣٣٨٠) وقال : «حسن صحيح» وصححه الألبانى ، وهو فى المسند (٤٥٣/٢).

(٥) المسند (٦٥٦٨) ، ومسلم (١١/٣٨٤) ، وأبو داود (٥٢٣) ، والترمذى (٣٦١٤) ، والنسائى (٦٧٨).

(٦) المسند (١٠٨/٤) ، والهيمى فى الزوائد (١٠٠/١٦٦) : «رواه البزار والطبرانى فى الكبير والأوسط وأسانيدهم حسنة»

ومن ذلك : الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنائز : فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفي الثانية يصلى على النبي ﷺ ، وفي الثالثة يدعو للميت ، وفي الرابعة يقول : اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده . روى الشافعي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن السنة في الصلاة على الجنائز أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه ثم يصلى على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنائز ، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها ، ثم يسلم سرا في نفسه . ورواه النسائي ، عن أبي أمامة نفسه أنه قال : من السنة ، فذكره (١) . وهذا من الصحاحي في حكم المرفوع على الصحيح .

ومن ذلك : في صلاة العيد : عن علقمة : أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد ، فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا ، فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتح بها الصلاة ، وتحمد ربك وتصلى على النبي ﷺ ، ثم تدعو ، وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلى على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر ، وتفعل مثل ذلك ، ثم تركع . فقال حذيفة وأبو موسى : صدق أبو عبد الرحمن . إسناده صحيح (٢) .

ومن ذلك : أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ روى الترمذي عن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك (٣) .

ومن أكد ذلك : دعاء القنوت : لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ، عن الحسن بن علي ، قال : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر : « اللهم اهديني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقتني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » (٤) . ورواه النسائي في سننه بعد هذا : وصلى الله على النبي محمد .

ومن ذلك : أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة : روى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علي » . قالوا : يارسول الله ، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ؟ - يعني : وقد بليت - قال : « إن الله

(١) الأم (٢٣٩/١) ، والنسائي (١٩٨٩) .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى (٢٠٨/٢) والحديث صححه الألباني في إرواه الغليل (٦٤٢) .

(٣) الترمذي (٤٨٦) وقال الشيخ أحمد شاکر : هنا موقوف في حكم المرفوع . قال القاضي أبو بكر بن العربي (٢ : ٢٧٣ - ٢٧٤) : « مثل هذا إذ قاله عمر لا يكون إلا توقيفاً ، لأنه لا يدرك بنظر . وبعضه ما خرج مسلم قال النبي عليه السلام : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة ، لا تنبى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . والحديث الذي أشار إليه هو في صحيح مسلم (١ : ١١٣) .

(٤) المستد (١٧/٨) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٤٢٥) ، والترمذي (٤٦٤) ، وابن خزيمة في صحيحه (١٠٩٥) ، وابن حبان في صحيحه (١٤٨/٢) ، والمستدرك (١٧١/٣) .

حرم على الأرض أن تاكل اجساد الأنبياء . ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه (١) . وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني ، والنووي في الأذكار .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين ، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها عبادة ، وذكر الله فيها شرط ، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعي وأحمد .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ : روى أبو داود عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد يسلم عني إلا رد الله عليّ روحى ، حتى أرى عليه السلام » .
تفرد به أبو داود ، وصححه النووي في الأذكار (٢) .

مسألة : وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه ، وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه : « الجامع لأدب الراوى والسامع » ، قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : كثيراً ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ، قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظاً .

فصل : وأما الصلاة على غير الأنبياء ، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم فى الحديث : « اللهم ، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته » (٣) ، فهذا جائز بالإجماع ، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم :

فقال قائلون : يجوز ذلك ، واحتجوا بقوله : « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ » ، ويقولون : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » [البقرة : ١٥٧] ، ويقولون تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم » [التوبة : ١٠٣] ، ويحدث عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل عليهم » (٤) . وأتاه أبى بصدقة فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » . أخرجاه فى الصحيحين (٥) . وبحديث جابر : أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صل علىّ وعلى زوجى . فقال : « صلى الله عليك وعلى زوجك » (٦) .

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : « قال أبو بكر صلى الله عليه » ، ولا قال علىّ صلى الله عليه . وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال : « قال محمد ، عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلاً ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ، عز وجل . وحملوا ما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبى أوفى ، ولا لجابر وامرأته . وهذا مسلك حسن .

وقال آخرون : لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الامواء ، يصلون على من يمتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم فى ذلك ، والله اعلم .

(١) المسند (٨/٤) ، وأبو داود (١٠٤٧) ، وابن ماجه (١٦٣٦) ، وصححه الألبانى .

(٢) أبو داود (٢٠٤١) .

(٣) البخارى (٣٣٦٩) ، ومسلم (٦٩/٤٠٧) .

(٤) ، ٥ ، ٦ ، تقدم ص ٥٩ .

ثم اختلف المانعون من ذلك : هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة التنزيهية ، أو خلاف الاولى؟ على ثلاثة أقوال ، حكاه الشيخ أبو زكريا النورى فى كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذى عليه الاكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد فى ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة فى لسان السلف بالانبياء ، كما أن قولنا : « عز وجل » ، مخصوص بالله تعالى ، فكما لا يقال : « محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلاً ، لا يقال : « أبو بكر - أو : على - صلى الله عليه » . هنا لفظه بحروفه . قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجوينى : هو فى معنى الصلاة ، فلا يستعمل فى الغائب ، ولا يفرد به غير الانبياء ، فلا يقال : « على عليه السلام » ، وسواء فى هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليك ، أو السلام عليك أو عليكم . وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره .

قلت : وقد غلب هذا فى عبارة كثير من النسخ للكتب ، أن يفرد على ، بأن يقال : « عليه السلام » ، من دون سائر الصحابة ، أو : « كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه صحيحاً ، لكن ينبغي أن يسوى بين الصحابة فى ذلك ؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه ، رضى الله عنهم أجمعين .

عن ابن عباس أنه قال : لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة . وعن جعفر بن برقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله : أما بعد ، فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمراتهم عدل الصلاة على النبي ﷺ ، فإذا جاءك كتابى هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعواهم للمسلمين عامة ، ويدعوا ما سوى ذلك .

فرع : قال النورى : إذا صلى على النبي ﷺ ، فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : « صلى الله عليه فقط » ، ولا : « عليه السلام فقط » ، وهذا الذى قاله متزع من هذه الآية الكريمة ، وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، فالأولى أن يقال : صلى الله عليه وسلّم تسليماً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا طَائِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول تعالى : متهدداً ومتوعداً من آذاه ، بمخالفة أوامره ولرتكاب زواجره وإصراره على ذلك ، وإيفاء رسوله بعبء أو بنقص ، عيافاً بالله من ذلك .

قال عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت فى المصورين .. وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله ، عز وجل : يؤذنى ابن آدم ، يَسُّبُ الدهر . وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (١) . ومعنى هذا : أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر ، فعل

(١) البخارى (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢/٢٢٤٦) .

بنا كذا وكذا . فيندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ، ويؤونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ، عز وجل ، فهي عن ذلك . هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ يُؤْفُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حسي بن أخطب . والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ، ومن آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْفُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْراً مَا كَتَبْنَا ﴾ أى : ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بِهَتَانَا وَوَيْثَانَا ﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتقصص لهم ، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين يتقصصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ، فإن الله ، عز وجل ، قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهلة الأغياء يسونهم ويتقصصونهم ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب ، يذمون المدوحين ويمدحون المذمومين . وروى أبو داود عن أبي هريرة ، أنه قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » . وهكذا رواه الترمذى ، ثم قال : حسن صحيح (١) .

﴿ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ قُلْ لَّا زَوْجَكَ وَبَيِّنَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ يُدِينُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيلِهِنَّ ذَلِكَ أَذْفَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَافِئاً رَّحِيماً ﴾ ﴿ لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمَنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أُحْذَرُوا وَقَتِلُوا قَتِيلًا ﴾ ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

يقول تعالى أمرًا رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلايبهن ؛ ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء . والجلباب هو : الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقتادة ، والحسن البصرى ، وسعيد ابن جبير ، وإبراهيم التيمي ، وعطاء الخراساني ، وغير واحد . وهو بمنزلة الإزار اليوم .

قال الجوهري : الجلباب : الملحفة .

قال ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويدين عيناً واحدة . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن قول الله تعالى : ﴿ يُدِينُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى . وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلابها تدينه عليها . وروى ابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الآية : ﴿ يُدِينُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ ، خرج نساء الأنصار كان على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن

(١) أبو داود (٤٨٧٤)، والترمذى (١٩٣٤)، وصححه الألبانى .

أَكْسِي سُوْدَ بِلِسْنِهَا (١). وروى عن سفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة ، إنما ينهون عن ذلك لخوف الفتنة ، لا لحرمتهن ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَذْنِي أَنْ يُعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ ﴾ أى : إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أَنَّهُنَّ حِرَائِرُ ، لسن بإمامه ولا عواهر ، قال السدى فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنِي أَنْ يُعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ ﴾ قال : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يتفون ذلك منهن ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة ، كفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب ، قالوا : هذه أمة . فوثبوا إليها . وقال مجاهد : يتجلبين فيعلم أنهن حرائر ، فلا يعرض لهن فسق بأذى ولا رية . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى : لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهم علم بذلك .

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره : هم الزناة هاهنا ﴿ وَالْمُرْغِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعنى : الذين يقولون : « جاء الاعداء » و « جاءت الحروب » ، وهو كذب وافتراء ، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أى : لنسلطنك عليهم . وقال قتادة ، رحمه الله : لنحرسنك بهم . وقال السدى : لتعلمنك بهم ﴿ ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أى : فى المدينة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ ﴾ حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريية مطرودين مبعدين ، ﴿ أَيُّهَا قُفُوفَا ﴾ أى : وجدوا ﴿ أَخَذُوا ﴾ لذنتهم وقتلهم ﴿ وَقَطُّوا تَحِيلاً ﴾ .

ثم قال : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : هذه سنة فى المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى : وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يُجَادُونَ وَيَلْبَسُوا وَلَا تَنْصِرُكَ ﴿٣﴾ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَلْمَعْنَا اللَّهُ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ ﴿٥﴾ رَبَّنَا إِنَّا إِتْمَعْنَا وَنَعْمَ فَضْلُكَ عَلَيْنَا وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾

يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ : أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها إلى الله ، عز وجل ، كما قال الله تعالى فى سورة « الاعراف » ، وهى مكية وهذه مدنية ، فاستمر الحال فى رد علمها إلى الذى يقيمها ، لكن أعبره أنها قريية بقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ اقْرَبِ السَّاعَةَ وَاتَّقِ الْقَوْمَ ﴾ [القمر : ١] ، وقال : ﴿ اقْرَبِ لِلنَّاسِ حِسَابَهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَرْضُونَ ﴾ [الانبياء : ٤١] ، وقال : ﴿ أَنْ أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْجُدُوا ﴾ [النحل : ١] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : ابعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى : فى الدار

الآخرة : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ، ﴿ لَا يَجِدُونَ فِيهَا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ تَقُوبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ أى : يسحبون فى النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا من أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرصات بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعْزُزُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِ اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِ لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ رَبَّمَا يُؤِذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر : ١٢] . وهكذا أخبر عنهم فى حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول فى الدنيا ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادِقَاتِنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَخْلَوْنَا السَّبِيلًا ﴾ أى : اتبعنا السادة وهم الامراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا ان عندهم شيئاً ، وانهم على شيء . فإذا هم ليسوا على شيء . ﴿ رَبَّنَا آتِنَاهُمْ خَبِيرِينَ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أى : بكفرهم ، وإغوائهم إيانا ، ﴿ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ . قرأ بعض القراء بالباء الموحدة . وقرأ آخرون بالثاء المثناة ، وهما قريبا المعنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمرو : أن ابا بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء ادعوه به فى صلاتى . قال : « قل اللهم ، انى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يضر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى انك انت الغفور الرحيم » . أخرجه فى الصحيحين (١) ، يروى « كبيراً » و« كثيراً » ، وكلاهما بمعنى صحيح . واستحب بعضهم ان يجمع الداعى بين اللفظين فى دعائه ، وفى ذلك نظر ، بل الاولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما ان القارئ مخير بين القراءتين ايتهما قرأ فحَسَنَ ، وليس له الجمع بينهما ، والله اعلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ

وَجِيهًا ﴾

روى البخارى عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، كان رجلاً حياً مستتراً ، لا يرى من جلده شيء استحياء منه ، فأذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما أدرّة وإما آفة ، وإن الله ، عز وجل ، اراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، عليه السلام ، فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلماً فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر ، حتى انتهى إلى ملا من بنى إسرائيل ، فراوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، عز وجل ، وأبراه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فولله إن بالحجر لتدياً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ . وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم (٢) . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ﴾ قال : قال قومه له : إنك أدر . فخرج ذات يوم يفئسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة تشد بثيابه ، وخرج

(١) البخارى (٨٣٤) ، ومسلم (٤٨/٢٧٠٥) .

(٢) البخارى (٤ - ٣٤) .

يتبعها عرباناً حتى انتهت به مجالس بنى إسرائيل ، قال : فراوه ليس بأدر ، فذلك قوله : ﴿ فَرَأَاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ . وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله . قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت . قال : فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ، ثم قال : « رحمة الله على موسى ، لقد أودى بأكثر من هذا فصير » . أخرجاه في الصحيحين (١) . وقوله : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ﴾ أى : له وجهة وجاء عند ربه ، عز وجل . قال الحسن البصرى : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ، عز وجل . وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع فى أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله ، وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١٠٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كانه يراه ، وأن يقولوا ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أى : مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، اثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم فى المستقبل يلهمهم التوبة منها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وذلك أنه يجاز من نار الجحيم ، ويصير إلى النعيم المقيم . قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله . وقال غيره : السديد : الصديق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب . والكلم حق .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿١٠٩﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

قال العوفي ، عن ابن عباس : يعنى بالأمانة : الطاعة ، التى عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم ، فلم يطقنها . فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الأمانة : الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، إن أموها اثابهم . وإن ضيعوها عذبهم ، فكروها ذلك واشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يعنى : غراً بأمر الله . وقال ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَابْتِئَانُ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴿٧٢﴾ قال : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها ، فإن أطعت عَفَرْتِ لَكَ ، وإن عَصَيْتِ عَذِبْتِ . قال : قبلت ، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حتى أصاب الحطيتية . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير وغير واحد : إن الأمانة هي الفرائض . وقال آخرون : هي الطاعة . وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن المرأة أوئمتت على فرجها . وقال قتادة : الأمانة : الدين والفرائض والحدود . وقال بعضهم : « الغسل من الجنابة » . وقال مالك ، عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والاعتسال من الجنابة . وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عُوِقِبَ ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق الله ، وبالله المستعان .

وعما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا « أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعملوا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : ينام الرجل التومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر [الركت ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر] المجل كجمر دحرجته على رجلك ، تراه مُتَبَرِّأً وليس فيه شيء . قال : ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله . قال : « فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن في بنى فلان رجلاً أميناً . حتى يقال للرجل : ما أجلدته وأظرفته وأعقلته . وما في قلبه حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى على زسان وما أبالي أيكم بايعت ، إن كان مسلماً ليردنه على دينه . وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، فاما اليوم فما كنت أبايح منكم إلا فلانا وفلانا » . وأخرجاه في الصحيحين (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : « أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حِفْظُ أمانة ، وَصِدْقُ حديث ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ ، وَعَقَّةُ طُعْمَةٍ » (٢) .

وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، روى أبو داود عن بريدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف بالأمانة فليس منا » ، تفرد به أبو داود ، رحمه الله (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أي : إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويظنون الكفر متابعة لأهله ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ، عز وجل ، ومخالفة رسله ﴿ وَتُؤْتَى اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي : وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

(١) المسند (٣٨٣/٥) ، والبخارى (٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣/٢٣٠) . وما بين المعرفتين من المسند .

(٢) المسند (٦٦٥٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» .

(٣) أبو داود (٣٢٥٣) ، وصححه الألباني ، وانظر السلسلة الصحيحة (٩٤) .